Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١٠، العدد ٤، شتاء ١٤٣٦ هـ
صفحة ٦٤٥ - ٦٧٠

الجواهري والسّلطات الأربع

(وصداها في شعره)

سودابه مظفّري*
أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الخوارزمي

(تاريخ الاستلام:٢٠ /١٢/ ١٤٣٥؛ تاريخ القبول:٢٢ / ٢ /١٤٣٦)

الملخّص

محمّد مهدي الجواهري كشاعر صادق يرينا حقيقة تاريخ العراق الحديث شفّافة. ذلك الرّجل الّذي اكتظّت حياته بالأحداث الخطيرة المسيطرة على المجتمع العراق، وقع الشّاعر في بطنها وتمرّد عليها طيلة عمره الطّويل وانعكست هذه السّلطات كلّها في قصائده المثيرة.

إنّ الجواهريّ عاش في طفولته تحت سلطة والده العنيفة يرسم له ما يريده، ووقع منذ شبابه في بحبوحة سلطة السّياسة العثمانيّة والملكيّة والاستعماريّة، كما أنّه يعاني التّقاليد الموروثة الحاكمة على المجتمع، الّتي تقيم النّاس في التخلّف الثقافي والمعرفي، وينتقد من أدعياء الدّين الّذين يستغلّون الفقراء ويضغطون عليهم باسم الدّين.

أمّا الّذي بعثني إلى القيام بهذه الدّراسة هو أنّ الباحثين حصروا حياة الجواهري بين ثلاث سلطات، أي سلطة السّياسة، سلطة التّقاليد الموروثة وسلطة أدعياء الدّين. ووقعوا في غفلة عن رأس السّلطات الثّلاث، أي سلطة الوالد. إن كان الجواهري متمرّداً على السّلطات الثّلاث رافضاً أصحابها، فجذور هذا التمرّد والرفّض ضاربة في مرحلة طفولته التّي مرّت تحت ظلّ سلطة أبيه العنيفة. ولم يقف أمام هذه السّلطات مكتوف اليدين إلاّ عند السّلطة الأبويّة لا يقدر على شيء باعتبار طفولته؛ أمّا بالنّسبة للسّلطات الثّلاث فلم يثُر معارضاً عليها بكلّ إمكانيّاته فحسب، بل اتخّذ قبالها موقفاً إصلاحيّاً، تنويريّاً وتقدّميّاً.

الكلمات الرئيسية

الجواهري، سلطة الوالد، سلطة السّياسة، سلطة القيم الموروثة، سلطة الثّيوقراطيّة الدّينيّة.

---

* الكاتبة المسؤولة
Email: Mozaffari_arabic@yahoo.com

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

إنّ عصر الجواهري وبيئته متّسمان بالأحداث السّياسيّة والاجتماعيّة الجسام، والجواهريّ من أكابر الشّعراء المعاصرين في العراق الّذي يتمتّع من روح حسّاسة ونفس متمرّدة متأثّراً من الدّوافع والعوامل المختلفة منذ طفولته حتّى آخر حياته، كما يمتاز بقوّته الشّعريّة المرهفة، ويعتبر من المهتمّين بقضايا الشّعب؛ «منذ طفولته اكتشف أنّه مجرّد طائر مسجون في قفص صنعه الاحتلال التركيّ والبريطانيّ وركام التّقاليد البالية، فعشق الحريّة؛ لأنهّا مثّلت له الإخلاص وبدأ مسيرة حلمه» (الجواهري، ١٩٩٩ أ، ص١٧). فلهذا نرى أعظم أشعار الجواهريّ تدور حول القضايا السّياسيّة والاجتماعيّة النّابعة ممّا كان يجري في بيئته العراقيّة. «كان شعر الجواهريّ على مدى يزيد على نصف قرن من التّاريخ المضطرب للعراق الحديث. يمثّل بصورة خاصّة جزءاً مهمّا من حياة الشّعب العراقيّ بكافّة فئاته وطوائفه؛ فهو شاهد في كلّ حدث اجتماعي أو سياسي، ومائل في كلّ تغيير وزاري، ومؤرّخ لتوقيع كلّ معاهدة سياسية جائرة ثار ضدّها الشّعب العراقي وقاومها، وهو بكلمة أخرى تصوير حيّ لأحاسيس الشّعب وتعبير عن آرائه ونبضات وجدانه وتطلّعاته نحو المستقبل» (شعبان، ١٩٩٧، ص١٠). الفرق الأساسي بين الجواهري والآخرين من الأدباء ولاسيما الشّعراء هو أنّ الجواهري لايسوءه سوء معاملة السّلطات المتجاوزة إلى الشّعب العراقيّ فحسب، ولا يرينا الأحداث والخطوب في مرآة أشعاره الصّادقة ولا غير، بل اشترك نفسه في المعارضات السّياسية والنّضال الاجتماعيّ ورأى من عواقبه ما رأى من الحبس والافتراء والطّرد والنّفي عن البلد؛ قبل هذا كلّه فإنّه يعاني سلطة في إطار بيته، «كان الجواهري طفلاً في زيّ شيخ وقور يعتمر العمامة البيضاء ويلبس الجبّة ويتحدّث بلغة الشّيوخ» (الجواهري، ١٩٩٩ أ، ص١٠٢).

إضافة إلى هذه السّلطات والتّعدّيات السّياسية والاجتماعية المتداولة في بعض الممالك الأخرى، فكان الجواهريّ يواجه بعض التّقاليد الموروثة والعادات البالية الاجتماعية تموج في بلاده وتمنع تقدّم المجتمع، كما أنّ سيادة بعض المدّعين بالدّيانة على النّاس واستغلالهم باسم الدّين أيضاً يؤلم شاعرنا، فلهذا تمرّد بعض الأحيان على هؤلاء المستغلّين باسم الإسلام.

ملخّص القول أنّ الجواهري واكب كلّ أحداث العراق طوال القرن الماضي، وتطلّع «إلى عالم جديد يشبع فيه الإنسان ويستطيع فيه أن يقول رأيه حقّاً وفعلاً، لا كما يريده

www.SID.ir

Archive of SID

الحاكم، بل كما يستطيع هو فيه أن يروي ظمأه إلى المعرفة والثّقافة، كحاجة روحية للحرية الموازية لرغيف الخبز» (شعبان، ١٩٩٧، ص١١٤).

إنّ الّذي يهمّنا في هذا البحث في إطار المنهج التّحليلي هو أنّ الجواهريّ لا يرفض السّلطة الأبوية والسّياسة الحاكمة ولا التّقاليد والقيم الموروثة ولا أدعياء الدّين بلسانه وكلماته فحسب، بل يعارض كلّ هذه الظّروف السّلبية بأقدامه الإيجابية، وموقفه من هذه كلّها موقف تنويري وإصلاحي وتقدّمي.

خلفية البحث

هناك دراسات كثيرة حول الجواهري وحياته وأبعاد شعره المختلفة، من الكتب والمقالات والأطروحات الجامعية، من أهمّها: كتاب (الجواهريّ جدل الشعر والحياة) تأليف عبدالحسين شعبان، (١٩٩٧م) بحث كامل عن الجواهريّ وميزاته الذّاتية وأنواع شعره، وكتاب (أزمة المواطنة في شعر الجواهري) تأليف فرحان اليحيى (٢٠٠٠م) يدور حول العوامل المختلفة المؤثّرة في شخصية الشّاعر وموضوعات شعره، وكتاب (الالتزام في شعر محمّد مهدي الجواهري) كتبه جعفر بهاء الدين وعلي أكبر مراديان (٢٠١١م) بحث مفصّل في وجوه الالتزام المختلفة عند الجواهري ومظاهره في أشعاره، وكتابان من الدّكتورة خيال الجواهريّ مشتملان على مجموعة من المقالات في الموضوعات المختلفة حول الجواهريّ عنوانهما (الجواهريّ.. مسير قرن)(٢٠٠٤م) و(الجواهري سيمفونية الرحيل) (١٩٩٩م)، ومن أهمّ المقالات: (الإبداع في نهج الشّاعر محمّد مهديّ الجواهري) تأليف محمّد عبدعلي حسين القزّاز نشرها مركز دراسات الكوفة، و(توظيف الخرافة الشّعبية في شعر الجواهري) كتبها الدّكتور سمير الخليل والدّكتورة رفل الطّائي من الجامعة المستنصرية، و(الجواهري وإنقلاب بكر صدقيّ) تأليف سحاب محمّد الأسدي من جامعة بغداد وكثير من الدراسات الأخرى لا مجال لذكرها في هذا الموجز. والميزة الّتي امتازت بها هذه الدّراسة هي البحث عن أوّل عامل في تمرّد الجواهري ومعارضاته الصريحة ضدّ الظّلم والجبر، وهي سيطرة والده العنيفة عليه الّتي أثّرت تأثيراً خالداً في روحه ونظرته إلى الحياة، وأصبحت أكبر دافع لمعارضة الشّاعر على السلطات السّياسية والاجتماعية والدّينية. والدّراسات المختلفة قد أشارت إلى السلّطات الثّلاث الأخيرة ولكنّها غفلت عن السلطة الأبوية الّتي لها صدى هائل في أشعار الجواهري.

www.SID.ir

Archive of SID

الحياة السّياسية في العراق

إنّ السّياسة في العراق داخلية كانت أو خارجية تحاط بأشدّ تدهور في تلك الفترة من حياة المجتمع العراقيّ، كما يقول الجواهريّ عنها: «كان الحكم العثمانيّ البغيض يحكم بلادنا باسم الدّين، وبالكرباج، ووعيت منذ البداية التّململ الصّاعد المطالب بالدّستور وبالحقوق القومية والدّينية... وتحت وطأة الاحتلال العثماني كانت المشاعر القومية تتنامي ويتّضح للمتوهّمين الحقيقة القاسية والمتخفية وراء القناع الدّيني، ... جاء إعلان الدّستور العثماني بمثابة فتيل تفجير لكلّ القوميات» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٧٣).

ما كاد ظلّ الحكم التركيّ ينحسر حتّى خيم الاحتلال البريطاني ظلّه المشؤوم على العراق ونكل بالشّعب العراقي بكلّ وسيلة، لم يبق أمام ذلك الاضطهاد الشّديد إلاّ انفجار أدّى إلى ثورة العشرين (١٩٢٠م)، ثم مرحلة الانتداب وإعلان الحكم الملكي برئاسة الملك فيصل الأوّل الّذي من سياسته يقول فيليب إيرلاند «إنّ فيصلاً وجد نفسه نقطة التّوازن بين الإنكليز والوطنيين، فقد كان مَديناً بعرشه لبريطانيا من جهة، بينما كان محتاجا إلى مؤازرة العراقيين من جهة أخرى، لكي يتمكن من الحصول على الاستقلال» (اليحيى، ٢٠٠١، ص١٣).

من الأحداث الهامّة في حياة العراق السّياسية هو انقلاب بكر صدقيّ (١٩٣٦م) دبرّه الإنكليز لإسقاط حكومة ياسين الهاشمي. وتمرّد رشيد الكيلاني على الحكومة والاحتلال البريطانيّ مؤيداً لألمانيا، يندّده الجواهريّ بقوله: «حركة الكيلاني غيرشرعية؛ لأنّها مؤيدة للنّازية، فإذا كانت بريطانيا خصماً مباشراً لوطني، فإنّ النّازية خصم مباشر للبشرية كلّها» (اليحيى، ٢٠٠١، ص١٧). ثم أقام نوري السّعيد الحكومة البوليسية، وقامت الإنكليز بتعديل معاهدة ١٩٣٠م. وسمّاها «بورتسموث» (١٩٤٨م) وهذا من أخطر الأحداث في سياسة العراق.

في الخمسينات من القرن العشرين بدأت مرحلة جديدة هي إجراءات قاسية ضدّ المعارضين بأمر نوري السّعيد، ثم التحاقه بأحلاف عسكرية إقليمية منها حلف بغداد (١٩٥٥م). هذه الأقدام القمعية أدّت إلى المعارضات الشّعبية أشدّ من قبل، وانتهت إلى تكوين بعض الأحزاب الوطنية، حتّى قام عبدالكريم قاسم ومجموعة الضبّاط الأحرار بانقلاب أطاح بالنّظام الملكيّ في تموز (١٩٥٨م) وسيطروا على مقاليد الحكم بزعامة عبدالكريم، هو الّذي اغتيل على يد زملائه وفي رأسهم صديقه «عبدالسّلام عارف» (١٩٦٣م).

www.SID.ir

Archive of SID

الحياة الاجتماعية في العراق

أصبح العراق منذ حضارته في القرن الثّاني للهجرة مركزاً تجارياً بسبب موقعه الجغرافي، فتتردّد إليه القوافل التّجارية من الممالك المختلفة، كما يجتاز التّجّار العراقيون من البلاد القريبة والبعيدة للتّبادل التجاريّ؛ إن هذه التّبادلات الثّنايية بين العراق والبلدان الأخرى من أنحاء العالم أدّت إلى نفوذ العلوم المختلفة في العراق وتثقيف المجتمع العراقي، إضافة إلى أنّ العراق منذ القديم يعتبر مركزاً دينياً، ولاسيما أنّه مركز التّشيع الأوّل. «يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنّ أهمية العراق لدى الشّيعة والأحداث والثّورات الكبيرة المرتبطة بالتّاريخ الشّيعي الّتي وقعت على السّاحة العراقية جعلت الشّيعة متعلّقين بهذا البلد نفسياً وروحياً، وينبغي الإشارة إلى الدّور الّذي تقوم به الكوفة والكاظمية وسامراء والنّجف وكربلاء خاصّة في هجرة الشّيعة من سائر البلدان الإسلامية إلى هذه العتبات المقدّسة، لما لها من موقع في قلوب الشّيعة ومحبّي أهل البيت عليهم السلام ممّا جعل العراق طيلة التّاريخ الإسلاميّ محجّاً ومزاراً للشّيعة من كلّ أنحاء الأرض» (بهاء الدّين ومراديان، ٢٠١١، ص٢٠).

أمّا من بين هذه المدن المقدّسة العراقية فتمتاز مدينة النّجف بأنهّا تحتضن مرقد أميرالمؤمنين أبي الأئمّة الطّاهرين علي عليه السلام كما هي مجمع أهمّ الحوزات الدّينية ومراكز العلم والثّقافة الإسلامية الأصيلة، وبهذا السّبب كان يتردّد إليها كثير من الملل والنّحل من أقصى نواحي الأرض للزّيارة وبعضهم يقصدونها لتحصيل العلوم الإسلامية وربّما يختارها بعضهم للإقامة. إضافة إلى أنّ النّجف الأشرف مدينة العلوم الدّينية، فالّذي تمتاز به هذه المدينة نشر الأدب وكثرة الأدباء فيها، ولاسيمّا تعاطي الشّعر الرّائج بين العلماء. «النّجف الّتي تعدّ مجالاً لدراسة العلوم الشّرعية، كانت عبر تاريخها منطلقاً لحركة أدبية شعرية، جعلت منها أهمّ المراكز الأدبية في العراق وفي العالم الإسلامي... فمجتمع النّجف هو مجتمع علمي وأدبي في آن واحد» (بهاء الدين ومراديان، ٢٠١١، ص٢٤). «كانت النّجف محفلاً أدبياً كبيراً يضمّ عدداً من بيوتات الأدب... وكان الشّعر حياة النّجفيين، فالمآتم محفل شعريّ، والأعراس محفل شعريّ، ولعب الأطفال شعرية يتسابقون فيها بالمطاردة والمطارحة والحفظ» (الجواهري، ١٩٩٩ أ، ص١٠١). ولكنّ أكثر الأشعار النّجفية مصطبغة بصبغة الدّين ونابعة من المصادر الدّينية. وهذه القصائد أفضل وسيلة لتوعية النّاس ضدّ الظّلَمة والمتعدّين وإرشادهم إلى الثّورة والتّمرّد والطّغيان على الظّلم والاضطهاد، حتّى أنّ النّجف اتّسمت بسمة المعارضة والثّورة في وجه الأعداء. أمّا الّذي كان يسيطر من السّلطات على العراق جنب هذه الامتيازات

www.SID.ir

Archive of SID

آنذاك فهو سلطة بعض التّقاليد وحكومة الأعراف القديمة على النّاس سيذكر أهمُّها ضمن «سلطة القيم الموروثة».

الحياة الدّينية في العراق

إنّ العراق مهبط الإمامة ومنزل الولاية، نزل عدد من أئمّتنا المعصومين عليهم السلام فيه وتعتبر مقابرهم محجّ المسلمين خاصّة الشّيعة منهم، يراودون إليها من كلّ أقطار الأرض، كما أصبح هذا الملك قبلة آمال النّاس من الأغنياء والفقراء؛ إضافة إلى هذا فإنّ حضور الأئمّة الّذين هم عيون صافية للتّعاليم الإسلامية في هذا البلاد، ثم تعاليمهم المنوّرة للنّاس أدّى إلى تأسيس كثير من المدارس والمكاتب الدّينية يقصدونه طلاّب العلوم الدّينية استقاء من عين القيم الدّينية المصفّاة والمواريث الإسلامية الخالصة. هذا الأمر يظهر أشدّ وأقوى في مدينة النّجف المقدسة، وكثيراً ما نفذ تعليم الأحكام الدّينية والمجادلة فيها في البيوت وبين أعضاء الأسرة خاصّة في العائلات الّتي كانت متّسمة بالزّعامة الدّينية. كما أنّ المرأة النّجفية الّتي كانت محرومة من التّعلّم في المدارس والمكاتب خارج البيت، ولكنّها «تحظى بالتربّية الإسلامية فتتعلّم القرآن والفرائض ومسائل الفقه... وكانت المرأة تتلقّى ذلك منذ طفولتها حتّى صباها في بيت والدها» (الموسوي، ١٩٨٨، ص١٢٧).

الميزة التّي امتاز بها المجتمع النّجفيّ في البُعد الدّينيّ هو أنّ الحياة الدّينية امتزجت بالحياة الأدبية ولاسيما الشّعرية منها، فلا نرى في المجتمع آنذاك مجالس ومراسم دينية خلت من الأشعار، «إنّ الظاهرتين الدّينية والأدبية كانتا تلتقيان وتصبّ كلّ منهما في مجرى الأخرى، وذلك بحكم فصاحة القرآن الكريم وبلاغته دينياً، أما أدبياً فمن منطلق الكتب الأدبية مثل نهج البلاغة و...» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٦٥).

أمّا المشكلة التّي كان المجتمع العراقيّ يعانيها فهو ظهور المذهبين التّشيع والتّسنّن، كما أنّ الدّيانات الأخرى موجودة في هذا المجتمع و«كان الاستعمار يجنّدها غالباً لضرب الحركة الوطنية وتفريغها من محتواها القومي والإنساني» (اليحيى، ٢٠٠١م، ص١٦).

نبذة عن حياة الجواهري

لا تتعين سنة ولادة الشّاعر المعاصر العراقي محمّد مهدي الجواهري بالضّبط، ولكنّ الشّاعر نفسه مصرّ على أنّه ولد عام ١٩٠٣م. والقول الأقوى هو عام ١٩٠٠م. إنّه انحدر من

www.SID.ir

Archive of SID

بيئة عريقة في الدّين والعلم والأدب في النّجف الأشرف، تلقُّبُ عائلتِه بالجواهري يرجع إلى الكتاب الّذي ألّفه جدّ الشّاعر أي الشّيخ محمّد حسن باسم (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام). هذا الكتب من أهمّ الكتب الثّلاثة في الأصول، كما هو من أهمّ المصادر في الاستنباط والفتوى. فلهذا لعائلة الجواهري مكانة مرموقة بين النّاس ولاسيما البيئة النّجفية في مستوى علوم الدّين والأدب. يعتبر والده عبدالحسين من الفقهاء وزعماء الدّين كما كان يقرض الشعر، ووالدته فاطمة بنت الشّيخ شريف آل كاشف الغطاء. ترعرع شاعرنا تحت رعاية والديه كما كانت لدى الأسرة أمة موسومة بـ"تفّاحة" الّتي كانت حكاياتها عن حياة العبيد والإماء مؤثّرة في نفس الطّفل آنذاك وتركت آثاراً لا تنكر في أخلاقه وسلوكه، كما زرعت في قلبه بذرة حبّ لكلّ النّاس بغضّ النّظر عن أجناسهم وألوانهم.

إنّ والد الجواهري كان معروفاً بقوّة الشّخصية وحدّة الطّبع وشدّة الاهتمام، ولاسيما بولده هذا أي محمّد مهدي، ويريد أن يخلق من ابنه الذّكيّ والنّبيه رجلاً فقيهاً وعالماً، فألزمه وهو طفل صغير بمصاحبته في المجالس اللّيلية التّي كانت تعقد من شيوخ العلماء والفقهاء يتبادلون الرّأي بينهم في الأمور المختلفة، بينما الطّفل الصّغير لايفهم شيئاً ممّا يجري في هذه المجالس. كما يأخذه الوالد إلى بعض الشّيوخ للمطالعة والدّراسة والشّاعر بين السّادسة والسّابعة من عمره، وما أبقى هذا العنف أثراً في نفس الطّفل الحسّاسة، إلاّ أنّه يهرب من هذه الفريضة بقوله: «كانت الدّراسة طوال هذه المدّة عبئاً ثقيلاً... وقد تحمّلتُ الكثير من العقوبات بسبب هذا الشّرود أو التّهرّب من فريضة الدّراسة الثّقيلة» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٥١). كما كان ملزماً بقراءة بعض الكتب الثّقيلة وحفظ بعض النّصوص والأشعار مثل حفظ خطبة من "نهج البلاغة" كلّ يوم أو قطعة من "أمالي أبي عليّ القالي" أو قصيدة من ديوان المتنبّي. إنّ الجواهريّ يعبّر عن هذا كلّه بالامتحان الّذي معه «تطوي مرحلة من مراحل طفولتي المتضاربة، وأُدفع إلى عهد الرّجولة دفعاً عجولاً» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٥٣).

أخذ الجواهري ينظم الشّعر منذ طفولته بتأثير حضوره في مجالس الشّعر والشّعراء، وكانت بيئة النّجف حافلة بهذه المجالس الّتي تقام في مناسبات مختلفة، يقول عن بداية شاعريتّه «لقد كانت صدمة الشّعر عليّ شديدة إلى حدّ يشبه التّقديس، وقد أيقظت هذه الصّدمة موهبتي الدّفينة» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٦٧). إنّه قرض الشّعر الكلاسيكي في الأغراض المختلفة أبرزها السّياسية والاجتماعية، كان ينشرها في الصّحف المختلفة.

www.SID.ir

Archive of SID

بدأ الشّاعر الامتهان في المشاغل المختلفة منذ سنة ١٩٢٧م. «ترك النّجف في هذه السّنة ليعين مدرّساً في المدارس الثّانوية، ولكن فوجئ بتعيينه معلّما على الملاك الابتدايي... زاول الجواهري عمله في المدرسة الابتدائية أسابيع قليلة، وإذا بأمر من ساطع الحصري بفصل الشّاعر بسبب قصيدته بريد الغربة... واتهّامه بذمّ العراق والولاء لإيران والشّعوبية» (بهاء الدين ومراديان، ٢٠١١، ص٣٣). وبعد هذه الأزمة انتقل إلى بلاط الملك فيصل الأوّل وكان هذا بدء تعرّفه بالكثير من الشّخصيات السّياسية، ولكنّه لم يمكث في البلاط أكثر من ثلاث سنوات واشتغل بالصّحافة الّتي طالت ثلاثين سنة أو تزيد من عمره وكشف عن اتّجاهاته السّياسية وتياراته الفكرية وآرائه الإجتماعية بقصائده المنتشرة فيها.

اشترك الجواهري في كثير من المجالس الأدبية والمؤتمرات الدّولية رئيساً للوفود العراقية والتقى بأهمّ الشّخصيات الثّقافية والعلمية والأدبية. قضى سبع سنوات في براغ بسبب معارضاته السّياسية وفي النّهاية أمضى سنوات عمره الأخيرة في دمشق حتّى توفّي بها سنة ١٩٩٧م. ودفن في مقبرة السّيدة زينب عليها السلام.

السّلطات في حياة الجواهري

واجه الجواهري في حياته الطّويلة كثيراً من أنواع السّلطات، بعضها فردي اختصّت بشخصه وانقضى بإنقضاء زمانه باقياً أثره في حياة الشّاعر، وبعضها الآخر جماعيّ لا ينحصر في شخص الجواهري دون غيره ولكن بقت تأثيرها في روح الجواهريّ وحياته حتى السّاعات الأخيرة من عمره.

١. السّلطة الفردية

هذا النّوع من السّلطة في حياة الجواهري يتمثّل في سلطة الأب الّتي انقضت بموت أبيه ولكن لها أثر خالد في حياة الشّاعر من كلّ مستوى ولاسيما من المستوى الروحي والنّفسي. تلك السّلطة هي الّتي يعبّر الجواهري عن زمنها بأمرّ الأيام والّتي كانت السّبب في هفواته وسقطاته اللاّحقة بدافع طموحات لم يخلق لها (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٤٩). فأبوه هو الّذي يقسي عليه كثيراً ويسلب منه الطّفولة ويأخذه معه إلى جلسات الشّيوخ، كما يتذكرها الشّاعر بقوله: «... انتقلت وأنا بين السّادسة والسّابعة من عمري، إلى مرحلة أكثر جدية والأصحّ أكثر جهامة وقساوة في التّعلّم» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٥٠). كما كان يأمره الأب

www.SID.ir

Archive of SID

بحفظ بعض الكتب حينما كان أترابه يلعبون في الأسواق والأزقّة يصيحون صيحة الفرح والسّرور والحرية، «وطوال مراحل الدّراسة هذه كنت أقضي النّهار بكامله، أحفظ وأحفظ وأنا أستمع بغيظ وألم لصوت أترابي يلعبون في الشّارع» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٥٢). يقول الدّكتور علي جواد الطّاهر عن هذا الإكراه «إنّ الوالد إذ يدع ولده بين كتب الأدب والشّعر وفي ملاعب الأدب والشّعر ويصحبه إلى مجالس الفقهاء والأدباء الكبار، فإنّه يضمر أمراً أبعد ممّا يرمي إليه ظاهر الحال... ليكن أديبا، ولكن ليكن قبل ذلك وبعده رجل دين وفقه وأصول ولتغلب فيه الرّوحانية على الأدبية، إنّه يقول كان أبي يمارس عليّ ضغطاً مستمرّاً لحفظ علوم الدّين، وأتظاهر مؤمنا بتنفيذ الأمر، وما إن يخرج هو وأخي الأكبر حتّى أهرول إلى دواوين الشّعراء» (الجواهري، دون تا، ج١، ص٦٠). هذه السّلطة الّتي أدّت إلى تخويف الطّفل وقلقه أكثر من تعلّمه ورغبته. وأخيراً انتهت السّلطة إلى تلبيسه بكسوة المتعمّمين ودفعه إلى عالم الشّيوخ في أجمل سنوات عمره أي في شبابه، يقول عنه الجواهري بكلّ غيظ: «كانت سنوات حياتي خلال ذلك تختصر قسوا إلى شهور بل أسابيع، وقد حملت إلى سنوات حياتي اللاّحقة تبعات تلك الفترة الّتي سرقت منّي، حملتها بكلّ تناقضاتها ومباذلها وعُقَدها ومفارقاتها حيث انعكست على حياتي وشعري، بل وعلى تعاملي مع النّاس ومن معي» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٥٣).

يعبرّ علي الشّرقي عن حياة الجواهري البيتية بكلماته، فيقول: «والجواهري في بيته كالسّبيكة في البوتقة والحبّة في المقلاة، لا يحمد من عيشته الدّاخلية شيئاً، ولا يستحسن كلّ ما في بيته، ولكنّه مكتوف لا يقدر على تغيير شيء تهيبّاً من المحيط ومن عدم المكنة الاقتصادية، فانقباضه في مجموع حياته البيتية أكثر من انبساطه، وهمومه أكثر من أفراحه» (الجواهريّ، دون تا، ج١، ص٨٠).

هذه السّلطة البيتيّة أو من الأفضل أن نعبّر عنها بالسّلطة الأبويّة، هي الّتي عبّر عنها مصطفى حجازي بـ«الأنا الأعلى» محلّ «الأنا» المقموع، ويعتقد أنّ مثل هذه التّربية تخلّ بالتّوازن وغالباً ما تؤدّي إلى الاغتراب عن الذّات والمجتمع (اليحيى، ٢٠٠١، ص٦٠). وهذه هي الحقيقة الّتي يشير إليها الجواهريّ في ذكرياته ويفصح عن نتائجها السّلبية بقوله: «وقد أتعبتني السّنوات العشر الأولى منها أكثر من العشرات الّتي تليها. فإليها تعود العُقد والرّواسب واختلاط الحسنات بالسّيئات اختلاطاً يصعب عليّ... أن أجد له مبرّراً غير أن أعود القهقري إلى هذه المرحلة من العمر الّتي حكمت كلّ حياتي التّالية» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٣٩).

www.SID.ir

Archive of SID

٢. السّلطة الجماعية

هذا النّوع من السّلطة لا يختصّ بالشّاعر دون الآخرين من مواطنيه، بل حاكمة على كلّ أبناء العراق وجارية في كلّ أنحاء البلاد؛ ولكنّ الّذي يمتاز به الجواهري حسّه المرهف وشعوره القوي ووعيه السّياسي والاجتماعي قد يرى ما لا يرى الآخرون ويعاني ممّا لا يهتمّ به غيره من المظالم والضّغوط ويعارض عليها بقلمه وقدمه لا يجرأ غيره عليه.

إنّ الجواهري لا يرى العداوة والتّعدّي في السّياسة الجائرة فحسب، بل يعتبر العدوّ في المجتمع العراقي آنذاك في ثلاث صور وأشكال هي السّياسة والتّقاليد الموروثة وسلطة أدعياء الدّين؛ وربّما من الأصحّ أن نقول أنّ السّياسة متأثرّة من العاملين الآخرين؛ لأنّ جذور التّقاليد والدّين جارية بين النّاس، إذا ضعفت هذه الجذور وضلّت عن سبيلها ومجراها الحقيقيّ يؤدّي إلى سيطرة المستغلّين من داخل بلادهم والمستعمرين من الأجانب على سياسة المجتمع، فتصبح السّياسة منحرفة عن جادّتها الصّحيحة ومسيرها الحقّ.

فالسّلطات الجماعية الّتي أحاطت آنذاك بالمجتمع العراقيّ عامّاً والجواهري خاصّاً سلطات ثلاث هي: سلطة السّياسة، سلطة التّقاليد الموروثة وسلطة الثيوقراطية الدّينية.

أ. سلطة السّياسة

منذ فتح الجواهري عينيه عرف السّلطة العثمانية في وطنه. فهذه أوّل سلطة سياسية في حياة الجواهريّ، وبعده دخل العراق في معركة الغزو الاستعماري البريطاني الّذي تدخّل في سياسة العراق باسم تحريره من السّيطرة العثمانية وارتكب ما ارتكب فيه من الجرائم، وعقد المعاهدات الجائرة من أبرزها معاهدة «بورتسموث» الخائنة، كما أثار النّزاعات الطّائفية بين الطّوائف العراقية لتبديد الوحدة بينهم والإسراع في أهدافه الإستعمارية؛ وكلّ هذه كانت مترتّبة عليه الثّورات الشّعبية المتتابعة، بعضها انتهت بالنّجاح وبعضها واجهت الفشل. أمّا في مستوى السّياسة التّي يظهر أنّ قوائمها على عاتق السّاسة العراقيين، فبدأت هذه السّياسة في عصر الجواهري من حكومة الملك فيصل الأوّل الّذي يكشف البعض عن حقيقة هذه الحكومة ويقول: «إنّ عرش الملك بُني على أساس بريطاني بحجارة عربية، وهل فيصل إلا حارس لمصالح الإنكليز في العراق» (اليحيى، ٢٠٠١، ص١٣). إذا كانت السّيطرة الأجنبية ظاهرة فاشية دون القناع، فاحتمالها أيسر من السّيطرة الّتي بنُيت على النّفاق والخيانة تظهر وطنية وراؤها الأيدي الأجنبية تديرها. «إنّ الوضع الشّاذّ ناتج عن كون

www.SID.ir

Archive of SID

العراق له سيادة وطنية، ومع هذا فهو تحت الانتداب. فالوزراء العراقيون مثلاً مسؤولون أمام البرلمان حسب الدّستور، ومع هذا فهُم تحت نفوذ مستشاريهم، وكلّ ما تملك الحكومة من جيش وإدارة لا تستطيع تحريكها إلاّ بموافقة الإنكليز» (اليحيى، ٢٠٠١، ص١٥).

من حيث أنّ الجواهري قضى قسماً من حياته في البلاط الملكيّ موظّفاً في دائرة التّشريفات رأى بعينه ما كان يحدث في البلاط من المؤامرات الخائنة والخطوات الغاصبة لحقوق النّاس وأنّ السّياسة أصبحت مجالاً لاختلاف السّاسة في اكتساب القدرة والثّروة بدلاً من أن تكون أداة في خدمة الشّعب، فتألّم من هذا كلّه ورجّح أن يخرج من تلك الدّائرة المحيطة بالخيانة والفساد، ثم انصرف إلى إصدار الصّحف المعارضة ضدّ الأنظمة الجائرة والدّيكتاتورية. ولايزال ينظم القصائد المثيرة أبناء وطنه ضدّ تلك السّياسات المنحرفة والباطلة وينشرها في الصّحف المختلفة لإيقاظ الشّعب العراقي من الغفلة الّتي جعلتهم نائمين راكدين.

ب. سلطة القيم الموروثة والتّقاليد البالية

رغم أنّ مملكة العراق أصبحت منذ حضارتها مجالاً لاختلاف القوافل التّجارية والفئات المختلفة من النّاس من أقصى جوانب الأرض، وهذا أكبر دافع لتقدّم المجتمع العراقي إلى التّمدّن وتعرّفه بالمعارف والعادات الجديدة الملائمة مع الحضارة الجديدة، ولكنّ بعض التّقاليد القديمة لم تزل بين الشّعب العراقيّ وكان النّاس يتمسّكون بها في حياتهم الفردية والاجتماعية. وهذا الأمر كان أقوى في النّجف الّتي تعتبر مجتمعاً دينياً اصطبغ بالصّبغة الدّينية. من هذه السّنن الموروثة القديمة هو النّظام الطّائفي الّذي كان من أهمّ الدّوافع في تمزيق الوحدة بين النّاس، «إنّ مشكلة الطّائفية والعرقية من أعوص المشاكل في العراق... وكان الاستعمار يحرّك هذه الأقليات غالباً ضدّ الوحدة الوطنية وتمرير مخطّطاته ومصالحه كما حدث في معاهدة ١٩٣٠، حين أثار النّزاعات العرقية والطّائفية الّتي لا يحسد العراق عليها» (اليحيى، ٢٠٠١، صص١٥-١٦). كما أنّ وراثة الزّعامة الدّينية في بعض البيوت قد تسبّب بعض الخلافات بين أعضاء الأسرة، مثل ما جرى بين الجواهري وأبيه في إرادة الوالد هذه الزّعامة لولده الفتي ورغبة الشّاعر عن هذا الميراث وتمرّده عمّا يحكم على بيته، يتحدّث الجواهري عنه: «بدأت أستعيد ذاتي وشخصيتي بعد رحيل والدي... بعد رحيله خرج الشّاعر الحبيس من جبّة الفقيه ورجل الدّين الّتي فرضت عليه» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٨٥)؛ إضافة إلى هذا إنّ هذه السّنة الموروثة تدور بين بيوت لم يصلحوا لهذه الزّعامة، حينما كان صلحاء قادرين في إصلاح المجتمع وتدبيره.

www.SID.ir

Archive of SID

من القيم البالية المسيطرة على العراق هو الحطّ من شأن الفتاة حتّى «إذا خطبت الفتاة تولّت أمّها أو إحدى قريباتها أمر أخذ رأيها في الخطيب، فإمّا أن توافق وإمّا أن ترفض، ولا يحدث أن يستأثر الأهل بالرّأي، ولكنّهم حين يقتنعون بالخاطب ولا تقتنع الفتاة به، يبالغون في أساليب الإقناع مبالغة تحملها على الموافقة» (الموسوي، ١٩٨٨، ص١٢٨). ومن معالم التّقاليد الغالبة على المجتمع العراقي أيضاً إبقاء المرأة في الجمود الفكري وعدم السماح لها بالتّعلّم، كأنّ المرأة طائرة مسجونة في قفص البيت لا تسمح هذه الأعراف القديمة لها الحضور في المجتمع و«تحطّ من شأن المرأة بوصفها إنساناً فعّالاً وطاقة بنّاءة لها فاعليتها المؤثرّة في المجتمع» (الجواهري، ٢٠٠٤، ص٢٧٩). و«حين ظهرت الدّعوة إلى تعليم المرأة... لقيت ردود فعل متباينة من العراقيين ومن علماء الدّين في النّجف، ووقف الشّعراء في معسكرين: أحدهما يتحمّس للالتزام بتعليم المرأة، والثّاني يحرّم تعليمها ويعدّه مفسدة تهدّد المجتمع وخطراً يتخطّف عفاف المرأة ويستهدف حياءها» (الموسوي، ١٩٨٨م، ص١٢٩). فيقول الشّاعر: «خلفية هذا التّمرّد تشي بما كان من أمر الاستهانة بأقدار المرأة والنّبل من كرامتها والحطّ من سيادتها. وهذه الخلفية بحدّ ذاتها وليدة خلفيات كثيرة تعبرّ عن تأخّر المجتمعات العربية في هذا المجال فضلاً عن غيره» (الجواهري، ٢٠٠٤، ص٢٧٩).

ج. سلطة الثّيوقراطية الدّينية

نشأ الجواهري في بيت متأصّل في الدّين وترعرع في محافل دينية وتَربّى في مجتمع عريق في الدّين؛ من بداية عمره تعرّف بالدّين الإسلامي والفقه والأصول واعتقاداته القيمة، كما أنّه تعمّم بإرادة والده في الثّامن من عمره وتلبّس بلباس الرّوحانية في شبابه، وله قصيدتان لا نظير لهما في الإمام الحسين عليه السلام ومأساة الطّفّ، عرّف فيهما حقيقة الواقعة، فجعل الإمام الشّهيد رمزاً للثّورة ورفض الظّلم وطالب الإصلاح والتّغيير في المجتمع، ثم يعترف فيهما الشّاعر بعمق ديانته وعدم اكتفائه بظاهر الإيمان.

إنّ والده من زعماء الدّين آنذاك ووالدته ـ كما يقول الشّاعر ـ «لا تقلّ عن والده في التّعبّد والإيمان» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٤٥). ولكنّه يعاني من أنّ والده يحسّ بالضّيم الشّديد من أن لا يكون الزّعيم بجدارة للأسرة الجواهرية فيقول: «ولكنّ والدي... يبدو أنّه لم يفهم الواقع المرّ الّذي آلت إليه زعامات العوائل النّجفية، بل وكل بيوتات العراق وما شابهها فقد أصبح المال والأملاك المتوارثة والقدرة على التّحايل وعلى إعطاء الأبهّات حقّها من المظاهر،

www.SID.ir

Archive of SID

فضلاً عمّا يمتاز به الواحد عن الآخر من الدّهاء في ذلك أساس الزّعامات الأولى، وهذا ما لم يكن والدي قد خلق له، فالحقيقة إنّ الّذين خلقوا لذلك كلّه هم القادرون أن يتوارثوا عمّن قبلهم من عنعنات وفخفخات، لا يعلم أحد كيف تلتقي بحقيقة الدّين وجوهره، وإن كان كلّ أحد يعلم بمظاهره وملامحه. وإلى جانب ذلك فهم القادرون على أن يسجّلوا كلّ الأوقاف المسجّلة هي بدورها للعشيرة إلى أملاك خاصّة بهم» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٤٥).

يعتقد الجواهري أنّ الزّعامة الدّينية لا تحكم على بيوتات النجف كما من حقّها، بل هي ملعبة في أيدي بعض أدعياء الدّين يديرونها بمصالحهم بدلاً من أن يفتكروا بمصالح المجتمع وإعانة الفقراء، كأنّه يسعى في إيقاظ أبيه بأنّ الزّعامة لا تكون «بمجرّد استحقاق ومجرّد كفاءة ومجرّد صدق في الأمانة وفي التّعامل، فضلاً عن الصّدق المصدّق في الإيمان والتّعبّد وفي التّعفّف» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٤٥). وبذلك يشكو الشّاعر من الظّروف الدّينية الحاكمة على المجتمع والجريرة التّي يرتكبها الّذين يعتبرهم النّاس زعماءهم وأئمّة الهدى والرّشاد إلى سعادة الدّنيا والآخرة.

كثيراً ما دعا الإسلام إلى التّعليم والتّعلّم كلّ الناس مذكراً ومؤنّثاً، وأكدت عليه النّصوص الدّينية، ولكنّ الفاصل الزّماني بين عصر الإسلام والحاضر خلق الجمود الدّيني والتّزمّت الشّديد عند بعض علماء الدّين في العراق، هذا الأمر الّذي انتهى إلى منع تعليم الفتاة والمرأة المعارف؛ «إنّ الدّعوة إلى تعليم المرأة اقترنت في أذهان علماء الدّين بالسّفور، فلابدّ أن يكون خروج الفتيات إلى المدارس النّظامية مقدّمة للتّخفّف من الحجاب والاختلاط بالناس واكتساب عادات هي بالمجتمعات غير الإسلامية ألصق» (اليحيى، ٢٠٠١، ص١٣٠). وهذا لون آخر من سلطة مدّعي الدّين على المجتمع؛ لأنّ تعلّم المرأة يفضي إلى إعداد الجيل الحاضر للمواجهة مع العالم الجديد المتحضّر وتربيته الموافقة للحضارة. ومن حيث أنّ الجواهري كان يرغب إلى التّجدد الاجتماعي ويعجب بالعلوم الحديثة، فلهذا يريد من الدّين «أن لا يتقاطع معها بل يتكيف معها ويتوافق مع خطّ التّطوّر» (شعبان، ١٩٩٧، ص١١٢).

صدى السّلطات في شعر الجواهري

أ) صدى سلطة الوالد في شعره

كما سبق فإنّ حالة التّمرّد والرّفض للجبر طوال حياة الجواهري ميراث ما تحمّل من المكروهات في الطّفولة بإرادة أبيه، لذا نرى في أكثر قصائده يشكو من ذلك الألم المزمن ويعاتب الدّهر، فيقول:

www.SID.ir

Archive of SID

أعاتب فيك الدّهر لو كان يسمع وأشكو اللّيالي لو لشكواي يسمع
أكلّ زماني فيك همّ ولوعة وكلّ نصيبي منك قلب مروّع
ولي زفرة لا يوسع القلب ردّها وكيف وتيار الأسى يتدفّع
أغرّك منّي في الرّزايا تجلّدي ولم تدر ما يخفي الفؤاد الملوّع

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١١١)

إنّ الشّاعر يبين ما في قلبه من الهموم الثّقيلة وينسب هذه الشّدائد إلى الدّهر، كأنّ كلّ نصيبه من الدّنيا منذ الطّفولة هو الشّدّة. إنه يئنّ وفي قلبه زفير مديد لا يظهره، وصبره الجميل تجاه هذه الهزّات العنيفة جعل الدّهر يحمّله شدّة بعد شدّة وقلبه ثقيل بالأحزان والمتاعب.

لقد بقيت عنده عقدة الفرح والمرح في صباوته وأيام شبابه وتركت آثارها السّلبية في روحه الحسّاسة، فيغضب على تلك الأيّام كيف تكون زمان التّصابي والتّواصل للآخرين ولم يكن نصيبه منها إلاّ الحسرة والعزلة والعبرة، يقول بكلّ حسرة وغضب مخاطباً عصر الشّباب:

قليً لك يا عصر الشّبيبة والصّبا فإنّك مَغدى للأسى ومَراح
صحبتك مرّ العيش لا الرّوض يانع لديّ ولا الماء الفراح قراح
تفيأت أطلال التّصابي وإنّما نصيبي منها حسرة وبَراح
حشى أفسحت فيه المنى خطواتها فضاقت به الأرجاء وهي فساح

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١٤٥)

في قصيدة أخرى يرى الجواهري نفسه مجسّماً من الأحزان المتكاثفة في قلبه لا يراه أحد صالحاً للغرام، بل ينفر منه بسبب معالم التّهجّم النّاشئ عن الأحزان في وجهه وعدم تجلّي آثار الحبّ فيه، وهو عادل في قاموسه وفكرته يدافع عن ردّ فعل حبيبته تجاه وجومه، فيقول:

نَفرتِ وقد حقَّ النُّفورُ لأنّني مجسّم أحزانٍ وقفتُ حِيالَك

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١١٩)

ويرجو أن يخرج من هذه الحالة الوخيمة إلى الشّوق والسّرور، فيحلم أن يكون له جناح يطير به من حضيض الأتراح إلى سماء الأفراح فيقرب بهذا إلى حبيبته وما تطلب، يكشف عن هذا الحلم بقوله:

ولولا جناحٌ طارَ عن موقعِ الأَسى لَكان قريباً من منَالي مَنالك

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١١٩)

www.SID.ir

Archive of SID

إنّ شاعرنا قد قاسى من جانب أبيه عنفاً وشدّة في طفولته، حمّل عليه والده ما لا يحبّ وما لا يطيقه، وسلب منه حرية الطّفولة وسرورها وألعابها، فكلّ هذا أبقى أثراً غير مطلوب في قلب الطّفل البريء وحك في فكرته أنّه وارث قساوة أبيه، وإن يظهر مغموماً فبجناية والده لا باختياره، ولكنّه يسري هذه الجريمة إلى كلّ والد قسيّ وفي صدرهم أبو البشر «آدم» الّذي ارتكب جناية وعصياناً وأورث أبنائه الأبرياء وبال عمله فكان سبب هلاكهم، وحزنُ البشر تراثٌ قديم بقدمة تاريخ خلق الأنسان، يقول:

أعندك علم أنّني من معاشر أبوه جنى واختار أدنى المسالك
رماهم إلى شرّ المهالك آدم فهُم أبرياء حُمِّلوا وزرَ هالك

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١١٩)

ويصرّح ببرائته من جريمة توجب حرقة قلبه وهلاكه في الدّنيا وعدم التذاذه من نعماتها بقوله:

كم فؤادٍ فيك مطويّ على حُرَقٍ مِن غيرِ ما ذنبٍ جنى

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١٣١)

كأنّ الشّاعر تعوّد لمثل هذه الآلام في حياته فيأخذ يسلّي نفسه ويعتبر نفسه من الأحرار الّذين لا يعيشون إلا مثقلين بالمتاعب، فيقول:

فلا تبتئس إن آلمتك حوادثٌ فإنّ قُصارى الحُرِّ أن يتألّما

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١١٦)

ويصرّح بتعوّده للأشجان في حياته إلى حدّ أنّ ذكر الهناء واللّذة والرّاحة يؤلم قلبه الّذي لا يألف بهذه الحالات، هذا قوله:

لا تذكرني الهنَا يشجُو الحَشا ذكرُه إنّي ألِفتُ الشَّجَنا

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١٣١)

إنّ الجواهري يحسّ قلبه مغلولاً مقيداً لا يستقلّ في أمره ولا اختيار له في ترك الهموم والأحزان، فيقول في «بين القلب والاستقلال»:

قالوا استقلّ عن الهُموم فقلتُ لا فَهو التبَّيعُ لظالمٍ متبوع

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١٢٥)

ربّما هذا الطّلب من الجواهري إثر إنشاده القصائد والأغاني الّتي توهم الآخرين بأنّ هذه التّغريدات نابعة من سرور الشّاعر ولذّته مماّ كان فيه، فيرفض الجواهري هذا الوهم الباطل ويخبر المتوهمّين بحقيقة أمره أنّ صوته منبعث من الحزن ودليل على شكواه، فيقول:

www.SID.ir

Archive of SID

غـــرّدَ الطّـــيرُ فقـــالوا: مســـعدٌ رُبّ نـــوحٍ خالَـــه الغـــرُّ غَنـــا

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١٣١)

إنّ الجواهري لن ينسى أيّام طفولته وبداية شبابه وما مرّ به من المرارات، نتيجة ما أراد له والده من ثقل الحياة وحبسه في مجالس الشّيوخ وحصره بين الكتب الدّينية الثّقيلة الفهم، فكأنّ الشّاعر عندما لم ير مفرّاً من هذه الحصار يلجأ إلى النّجوم ويتحدّثها عمّا مضى به، وتطيب النّجوم خاطره وتبشّره بأيّام السّرور والحرية، فيتذكر الجواهري تلك الأيّام ويستبشر بالمستقبل الزّاهر بعد كلّ الخطوب، يقول:

ولیـــلٍ ذكـــرتُ بـــه صـــبوتي فعُـــــدتُ إلى الـــــزّمن الأوّل
تجـــرّدتُ عـــن تبعـــات الجـــدود وبِـــتُّ عـــن الغـــير في معـــزل
قَسَـت شُـهبُه عـن شَـكاة الهـوى وحـــدّقنَ شَـــزراً ولا تَحفِـــل
أبُـثُّ لهـا هـمَّ عصـرٍ مضـى فتبســم عــن عصــري المقبــل

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١٤٣)

كلّ هذا فضلاً عمّا قاله الجواهري من القصائد في تمرّده ورفضه للظّلم والجبر بأي لون كان، فتمرّده وعصيانه في كلّ المستويات متأصّل في معاملة والده معه وقسوته على في الطّفولة والشّباب. هو يقول عن نفسه المتوثّبة وطبعه الحادّ:

ولوالـــد وُرّثـــتُ مـــن دمـــه محـضَ الإبـاء وسَـورةَ الغضـب
مـا بيـن جـنبيّ الّذَيـنِ همـا قفـصُ الهُمـوم ومَجمـع الكـرَب
قلـبٌ يـدُقّ إلى العنـا طَرَبـا ويـحِنّ مشـتاقاً إلى الطّـرب

(الجواهري، دون تا، ج٢، ص٢٩٨)

ب) صدى سلطة السّياسة في شعره

إنّ أعظم أشعار الجواهري في مجال السّياسة، «لقد استجمع مفردات النّقد السّياسي وأفرغها في بطون وعلى رؤوس رجال المنظومة الملكية، وملأ دواوينها بالفضائح، وجعل من رؤساء الوزارات والوزراء والنوّاب أضحوكة الدّنيا» (الجواهري، ١٩٩٩ أ، ص١١٢). فلا غرو في هذا الأمر؛ لأنّه ـ كما سبق ـ واجه أنواع السّياسات الفاسدة منذ طفولته وأحسّها بكلّ وجوده، «يعتقد هادي العلويّ أنّ محتويات الشّعر الوطني للجواهري تجدر بالدّراسة في مجالات عدّة ويقول: تخصّ سياسة الفئات الحاكمة وتصرّفات رجال الحكم، وتمتدّ إلى السّياسة الاستعمارية للمعسكر الغربيّ الّذي يشكل بالتّكافل مع الحكام الوطنيين العدوّ الطّبيعي

www.SID.ir

Archive of SID

للشّعب العراقي وبقية الشّعوب العربية، ومصدر الخراب الّذي تعانيه هذه الشّعوب» (بهاء الدين ومراديان، ٢٠١١، ص١٧٨). فموقف الجواهري تجاه هذه السّياسات الغاصبة والسّلطة الغالبة موقف سلبي وإصلاحي وتنويري. فنرى بين قصائده يندّد الحكومة الجائرة وينتقد سياستهم الخاطئة والماكرة، فيقول:

وتســـاءلَ المُتعجّبـــون لحالـــةٍ ... نَكراءَ: مَن هم أهلُ هذي الدّار؟
هـي للصّحابة من بني الأنصار ... مِـن كـلّ بـدريّ وكـلِّ حـواريّ
للحاكميـنَ بـأمرِهم عـن غيرِهـم ... ولِصَـفوة الأسـباطِ والأَصـهار
مـن كـلّ غـازٍ شـامخٍ في صـدرِه ... زاهـي الوِسـام، مـدوّخِ الأمصـار
هـي لِلّذيـن لـو امتحنـتَ بـلاءَ هـم ... لَعجبـتَ مـن سُخريـة الأَقـدار

(الجواهري، دون تا، ج٣، ص١٤٣)

إنّ الحكام كانوا يلتجئون إلى انتسابهم إلى الصّحابة والأنصار والمهاجرين لكي يكسبوا بهذه الدّاعية الوجهة الشّرعية لحكومتهم؛ ولأن يغطّوا عدم صلاحيّتهم للحكومة، والجواهري يكشف السّتار عن خداعهم ويعرف وجوه الحكام الحقيقيّة في أبياته.

لقد كان نقد الجواهري للحكومة والسّاسة المسيطرة على العراق نقداً لاذعاً، يصف الحكام في قصائده السّياسية بالجرائم الخبيثة والمقاصد الكريهة والحماقة والخيانة والكذب والطّمع والتنّاقض بين أقوالهم ووعودهم المزيفة وأفعالهم، ويبين شدّة سخطه منهم في قوله:

سُبحانَ مَن خلقَ الرِّجالَ فلَم يجد ... رجـــلاً لمـــوطن أن يـــخُلقا
مـا إن يـزالُ مرشّـحاً لأُمـوره ... متجبّـراً أو طامعـاً أو أحمقـا
وطـني وداؤُك أنفـسٌ مملـوءةٌ ... جشَـعاً فمَـن لي أن تُبِـلّ وتفرقـا
بلـوَى الشُّعوبِ مخُـادعون إذا ادّعَـوا ... للنّصـحِ كـذّبت الفَعـالُ المَنطقـا

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٢٤٧)

إنّ الدّولة الجائرة قد تلتجئ إلى الضّرب والشّتم والسّياط والسّجن للسّيطرة على الشّعب، والجواهريّ ينذرها بأنّ الملك لا يبقى مع الظّلم، والحكومة لا تنجح في تذليل النّاس وإطفاء ثورتهم الغاضبة، بل كلّ محاولة لإطفاء شعلة غيظ الشّعب ينتهي إلى إشعالها أشدّ من قبل، قائلاً:

تبّـاً لدولـةِ عاجزيـنَ تَوهّمـوُا ... أنّ الحكومـةَ بالسِّيـاط تُـدام
والويـلُ للماضيـنَ في أحلامِهـم ... إن فـرَّ عـن "حُلُـمٍ" يـروعُ منـام

www.SID.ir

Archive of SID

وإذا تفجّــرت الصّــدورُ بغيــظِها حنَقــاً كمــا تتفجّــرُ الألغــام
إذا بِهــم عصــفاً أكيــلاً يــرتمَى وإذا بمــا ركنــوا إليــه رُكــام
وإذا بمــا جَمــع الغــواةَ خُشــارة وإذا عُصــارةُ كــلّ ذاك أُثــام

(الجواهري، دون تا، ج٣، ص٢٧١)

من المؤثّرين في السّياسة الحاكمة هو مجلس النّوّاب الّذي يتشكل من ممثلّي الشّعب ويظهر أنّ أخطر وظائفهم الدّفاع عن حقوق الشّعب المهضومة وردّ مظالمه، ولكنّ الجواهري عبرّ عنه بالمجلس المفجوع الّذي حكم عليه الظّلم، فيصف النّوّاب بأخشاب وأنصاب لا إرادة لهم في الأمور، ترتفع أصابعهم اليابسة كأحطاب عند التصديق على اللّوائح الفاسدة والجائرة قائلاً:

المجلــسُ المفجــوعُ رُوّعَ أهلُــه وبكتــك أروقــةٌ لــه وقِبــاب
... ولقَــد أقــولُ لِرافعيــنَ أصــابعاً ليــسَت تحُــسّ كأنّهــا أحطــاب
رهــنَ الإشــارةِ تخَتفــي أو تَعتلــي ويــنَال منــها السّــلبُ والإيجــاب
مــاذا نويــتُم ســادَتي: هــل أنــتمُ بعــدَ الرّئيــس ـ كعَهدِه ـ أخشــاب
هــل تنَهضــون إذا استُثيــرت نخــوةٌ أو تجَمــدون كــأنّكم أنصــاب
هــل أنــتمُ إن جــدَّ أمــرٌ يــنبغي توحيــدَ شملِكــم بــه أحــزاب

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٥٠٣)

إنّ الشّاعر يعاني من الاستبداد وفقدان الحريّة في المجتمع بألوانها، ويعبّر عن السّكوت بقاتل الإنسان ولاسيما الأديب والمفكر:

سكتٌ وفي صَدري فيه تُغلى مراجلٌ وبعضُ سكوتِ المرء للمَرء قاتلٌ

(الجواهري، دون تا، ج٢، ص٢٣١)

إنّ الغزو الإستعماري يعتبر بلاء عظيماً نزل على البلدان المستضعفة، ولاسيما الممالك الإسلامية لمعارضة المستعمرين ضدّ العالم الإسلامي، هادفين محو الإسلام والمسلمين من الكرة الأرضية. من مؤامرات الاستعمار في العراق تمزيق الوحدة بين شتّى الطّوائف والعشائر، بلغت فضاحته وجسارته إلى حدّ أنّه يستخدم العراقيين من الطّوائف المختلفة لكبت المواطنين والقضاء عليهم، يقول الجواهري عن هذه المؤامرة المريرة:

وكانــت طبــاعٌ للعشــائر ترتجــى فقــد لُوّنَــت حتّــى طبــاعُ العشــائر
وكــان لنــا منــه ســلاحٌ فأصــبحوا ســلاحاً علينــا بــين حــين وآخــر

(الجواهري، دون تا، ج٢، ص٢٦٧)

www.SID.ir

Archive of SID

لم يهمّ الشّاعر مؤامرات الاستعمار في العراق فحسب، بل من حيث أنّه كان يحبّ كلّ الناس بغضّ النّظر عن جنسياتهم وألوانهم ولغاتهم، فلذا يندّد الغزو الإستعماري في كلّ العالم ويقوم بشجب سياسة القمع وسياسة التّفرقة العنصرية من جانب الإستعمار العالمي قائلاً:

أيّهـا الـوحش الّـذي ذاق الزّنـوج ... سـكراتِ المـوت مِـن أنيابـه
جُـرمُهم أن عـدِموا لونـاً يمـوج ... بالـدّم الأزرق مِـن أنسـابه

(الجواهري، دون تا، ج٤، ص٥٦)

من ميزات الجواهري أنه لا يكتفي بنقد الظّلمة والخصوم والمتجاوزين فحسب، بل وإنّه يخاطب الشّباب والثّوّار في قصائده النّارية ويشجّعهم بالمقاومة والصّمود ويبشّرهم بالمستقبل المشرق، كما يخاطب الجيل الجديد بقوله:

يـا أيّهـا الجيـل الجديـد ولَطالَمـا ... لَصـقت بغـير ذواتهـا الأعـلامُ
ولَطالَمـا اشـتطّ الطّغـاةُ وأرجَفـوا ... للمُصـلحين وأقعـدوا وأقـاموا
سَـمَّوك هـدّاماً لأنّـك تجتـوي ... مـا البَغـيُ سَـنّ ومـا جَـنى الإجـرام
... هَـوِّن عليـك فكلـبُ ذلـك فِريـةٌ ... تَفـنى ويبقَـى السّـعيُ والإقـدام
وكـذاك كـلُّ مُخـرِّب لرذيلـة ... بـانٍ وكـلُّ معمِّـر هـدّام

(الجواهري، دون تا، ج٣، ص١٥٨)

ج) صدى سلطة التّقاليد الموروثة في شعره

من القضايا التّي كان الجواهريّ يعانيها في حياته هي التّقاليد الموروثة والقيم البالية في المجتمع العراقي، و يعتبرها عدوّا معانداً لكلّ حرّ، قائلاً:

التّقاليـدُ والمُـداجاةُ في النّـا ... سِ عـدوٌّ لكـلّ حُـرٍّ فَطـين

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٤٩١)

وما هذه المعاندة للحرّ الواعي إلاّ بسبب خروجه من القيود والأغلال المعقّدة على أربعه، والعادات البالية القديمة من أهمّ عوامل التّخلّف الإجتماعي والثّقافي والحضاري، وها هو الّذي لا يحبّه الإنسان المتنوّر والمثقّف، بل ولا يطيقه.

لا يطيق الجواهريّ النّبيه أن يرى العالم يتطوّر ويتقدّم إلى الأمام، والعراق راكد ثابت في مكانه كما كان في القرون الماضية، يشكو قائلاً:

تمَضـي السِّـنونَ وكـلُّ شـيءٍ جامـدٌ ... تتطـوّرُ الـدُّنيا ولا يـتطوّرُ

(الجواهري، دون تا، ج٤، ص٣٣)

www.SID.ir

Archive of SID

إنّه لايبالي من التّصريح بمعارضته ضدّ سلوك النّاس واختراق طريقة معيشتهم وتفكيرهم البالية، فيقول بكلّ صراحة:

أنَا ضدُّ الجمهورِ في العيشِ والتّفكيـ ـــرِ طُــرّاً، وضـــدُّه في الدّيـــن

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٤٩١)

ربّما بسبب هذه الصّراحة يشعر بالوحدة ويحسّ الغربة الباطنية قبال ما يهتمّ به المجتمع من العادات السّخيفة. كأنّه يهيم في بيئته ناوياً نشر المبادئ والقيم الجديدة الملائمة مع الحياة الجديدة لرقي المجتمع، ولكنّ العوارض الّتي تتعرّض في سبيل هدفه المنشود عديدة تمنعه، فيقول:

وحِيداً يحُامي عن مبَادئَ جمّة أما في البَرايا مُنصفٌ فيُؤازرُه
يهيمُ، يبثُّ النّجمَ سرّاً فينثني كأنّ رقيباً في الدّيارِ يحُاذره

(الجواهري، دون تا، ج١، ص١٠٩)

ثم يتمنّى لو كانت أزمّة أمور النّاس في يديه حتى يغيّر مصيرهم ممّا كانوا فيه من الرّكود والتّأخّر والسّكوت قبال الظّلم والتّعدّي إلى المستقبل المشرق بإيحائهم روح الحياة الجديدة والتّمرّد ضدّ كلّ قيد وإغارة ويدفعهم إلى المجتمع المتجدّد وفق مقتضيات العصر الجديد يقول:

ولَو أنّ مقاليدَ الجماهيرِ في يديّ سَلكتُ بأوطاني في سبيلِ التّمرّد
ولكنّني أسعى برجلٍ مؤوفّة ويا ربما أسطُو بغير يد

(الجواهري، دون تا، ج٢، ص١٣)

ما هذه الحسّاسية لقضايا الجمهور إلاّ علاقة الشّاعر الوثيقة بالنّاس وحبّه الشّديد لهم، كما يعبّر عن هذه العلاقة بكلماته: «إنّ علاقتي مع الجماهير قديمة جداً... لأنّني منحاز منذ الطّفولة إليهم، وأدافع ـ رغم كلّ العوائق ـ عن مصالحهم ومستقبلهم، لمجرّد أنّني في الصّميم منها» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج٢، ص٢١٣).

إنّ الجواهري يتمرّد بعنف على التّقاليد والأعراف السّائدة في بيئته، ويحاول أن ينزع كسوتها البالية ليلبسها ثوباً جديداً، فلذا نراه مع نشأته في أسرة عريقة في الوجاهة الاجتماعية وترعرعه تحت سيطرة التّقاليد الموروثة ولاسيما بالنّسبة للمرأة وحضورها في المجتمع وتعلّمها، ضاق ذرعاً لهذه القيود والحدود الظّالمة، كما يقول: «إنّني عشت في بيئة

www.SID.ir

Archive of SID

تسيطر عليها الأعراف والتّقاليد البالية» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٢٦٥). ويتمنّى لو يعيش في مجتمع حضاري بقوله: «أنا أحبّ الحياة، وخُلقتُ للمجتمعات الحضاريّة، ولست للمجتمع المتخلّف» (حسن، ٢٠٠٢، ص٣٥). يعبّر عن محاولته لتغيير المجتمع الحاليّ إلى مجتمع بلا حدود وقيود تفصل بين النّاس والتّقدّم والثقافة والحياة الجديدة في شعره:

أحاولُ خرقاً في الحياةِ فما أجرا وآسَفُ أن أمضي ولم أُبقِ لي ذكرا

(الجواهري، دون تا، ج٢، ص٨٦)

لاشك أنّ معارضة الجواهري ضدّ التّقاليد الموروثة الحاكمة على المجتمع آنذاك وليدة بيئته العائلية. إنّ أباه كان من ذوي العمائم، الّذي له موقع خاصّ بين النّاس ويمكنه المعيشة بسهولة ويسر بالصّدقات والنّذور من قِبل النّاس، ولكنّه يمتنع من ذلك بسبب عفّة نفسه وكرامتها حتّى في شدّة فقر الأسرة وحاجتهم، فيقول الجواهري: «لقد وصلت المكابرة إلى حدّ الإفراط في ساعات الفقر؛ إذ كان باستطاعة والدي أن يزيح غيمة الفقر عن البيت، وأن يسلك ما سلكه الكثير من ذوي العمائم واللّحى بزيارة معارفهم وأقاربهم من القبائل وزعماء العشائر في مناطق الفرات المتّصلة بالنّجف... فيعودون من رحلاتهم وقد أشبعت أيديهم بقبلات التّبريك، وملئت جيوبهم بما يكفيهم لعام أو أكثر... لكن والدي رغم حاجتنا الماسّة يمتنع عن ذلك بسبب عفّة النفس والوجاهة» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١، ص٤٧).

إنّ الجواهري حينما أدرك أنّه يعيش في مجتمع متخلّف يخضع تحت مقاليد النّظام الطّائفي ولا إرادة لآحاد النّاس في مشيهم وسلوكهم ولا يتقدّمون إلى سبيل الرّشد والهداية ويرأس عليهم شيوخ يغيرون كلّ ما لهم، فلذا أخذ يتمرّد على العادات الموروثة الّتي علّقت على أعتاق المجتمع حبائل العبودية والتّخلّف. نراه يهجم على المتزمّتين ويندّدهم غاضباً عليهم، فيقول:

أسلَموها أمرَهم إلى الشّيخ عُميا نأ وسارُوا يقفونَه حيثُ سارا
وامتَطاهُم حتّى إذا نالَ بغيا خَلع اللُّجمَ عنهمُ والعِذارا
نبذَ القشرَ نحوَهم باحتقارٍ وحوى اللّبَّ وحدَه والخِيارا

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٤٦٤)

من القضايا الاجتماعية في بيئة الجواهري تعدّد الدّيانات والقوميات والعادات الموروثة الّتي كانت منحصرة تحت قدرة أصحاب السّياسة والثّروة للوصول إلى أهدافهم الفاسدة،

www.SID.ir

Archive of SID

ويمنعون المجتمع من التّقدّم، فيصوّر لنا الشّاعر موقفه من هذه الاضطرابات، فيقول ساخراً:

أي طرطرا تَطرطري/ تقدَّمي تأخّري/ تشيّعي تسنّني/ تهوَّدي تنصّري/ تكرَّدي تعرَّبي/ تهاتري بالعُنصر/ تعمّمي تبرنَطي/ تعقّلي تسدَّري/ كوني ـ إذا رُمتِ العُلى ـ/ مِن قُبُلٍ أو دُبُر/ صالحةً كصالحٍ/ عامرةً كالعُمري (الجواهري، دون تا، ج٣، ص١٢١)

ومن حيث أنّ المجتمع آنذاك كثيراً ما يفتخر بآبائهم ومفاخرهم السّابقة دون أن يخطوا أنفسهم خطوة مؤثّرة مفيدة إلى الأمام ويكتسبوا مفخرة للمجتع، فيبشرّهم الجواهري ساخراً إن لم يكن لأحد جدّ يفتخر به وبمناقبه فلا بأس، فيمكن اختلاق أب ماجد صاحب أثر حميد بين الأعراب يقول:

وأنـــــتِ إن لم تَجِـــــدي أبـــــاً حميـــــدَ الأثـــــر
ومَفخَـــــراً مـــــن الجُـــــدو دِ طيّـــــبَ المُنحَـــــدَر
ولم تَـــرى في الـــنّفس مـــا يُغنيـــــك أن تفتخـــــري
... طُـويفي علـى الأعـراب مِـن بـــــادٍ ومِـــــن مُحتضِـــــر
والتَمِســـــي منـــــهم جُـــــدو داً جُـــــــــــدُداً وزَوِّري

(الجواهري، دون تا، ج٣، صص١٢١-١٢٢)

ما أجمل تعبير السّيد جمال الدّين عن هذا الشّاعر النّبيه والواعي والمتحرّر أنّه «الفكر المنفتح في المجتمع المنغلق» (الجواهري، ١٩٩٩ أ، ص٩٣).

د) صدى سلطة أدعياء الدّين في شعره

كثيراً ما يثني الجواهري على الدّين وعلماء الدّين في مذكراته وقصائده، ولاسيما الّذين قاموا في صفوف المعارضين ضدّ الحكام الظّلمة والاستبداد العالميّ ولم يبرحوا من الشّعب، في رأسهم قائد ثورة العشرين «الشّيخ مهدي الخالصي» والزّعيم الوطني «محمّد تقي الشّيرازي» والمصلح الدّيني التّنويري «الملا كاظم الخراساني»، فمدحهم ومجّد بطولاتهم الفردية والاجتماعية. ويتذكرهم ذكراً حسناً بقوله: «إنّي لمدين في تصوّراتي اللاحقة عن البطولة لهذه الشّخصيات الّتي جمعت قيم السّماء والأرض، ولم يشغلها البحث العلمي والدّين عن هموم النّاس اليوميّة وعن دور رجل الدّين والمثقّف في معركة التّحرير...» (الجواهري، ١٩٩٩ ب، ج١،

www.SID.ir

Archive of SID

ص٧٦). ولكن مع الأسف قام بعض المتظاهرين بالدّين بتحريف مبادئ الدّين ومفاهيمه وأخذوا يسيئون استعمال سلطتهم على الشّعب العراقي آنذاك ويسيطرون عليه باسم الدّين، فصار الدّين ألعوبة ومطية وآلةً للوصول إلى غاياتهم الفاسدة ومصالحهم الفردية. أدرك الشّاعر هذه الإساءة فتمرّد عليهم وأخذ يفضحهم بين أعين النّاس ويعرّي أعمالهم وحركاتهم الخارقة للدّين المبين بأشعاره، فيقول:

تحَكَمَ باسمِ الدّين كلُّ مُذمّم ومُرتكب حَفّت به الشُّبهات
وما الدّينُ إلاّ آلةٌ يشهَرونها إلى غرضٍ يقضونه، وأداةٌ

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٤٦٨)

إنّه ينتقد من الشّيوخ الّذين يعتبرون أنفسهم أرباباً والرّعيّة عبيدهم، فيمشون بكلّ تبختر والنّاس خلفهم كالبهائم لا خيارَ لهم في الحياة، قائلاً:

إذا أقبلَ الشّيخُ المُطاعُ وخلفَه من الزّارعينَ الأرضَ مثلَ السّوائم

(الجواهري، دون تا، ج٢، ص٣٥٨)

«لقد عرف... أنّ هناك من يسطو على الحقوق الشّرعيّة وأموال الزّكاة والخمس التّي يرسلها المسلمون من أصقاع الأرض لتوزع عليهم بدلاً من أن توزع على مستحقّيها. فثار على هذا السّلوك من سنواته الشّعريّة الأولى» (الجواهري، ١٩٩٩ أ، ص١٠٣). إنّ مدّعي الدّين كانوا يجمعون صدقات النّاس ونذورهم ويدّخرونها في صناديقهم عوضا عن أعانة المعوزين والمساكين، لابدّ أن يكون عملهم هذا صدمة قاسية علي أصل الدّين المبين واستئصال جذوره، هذا إضافة إلي أنّ النّاس ينظرون إلي الدّين نظرة تشاؤمية وسلبيّة، يقول:

على باب "شيخ المسلمين" تكدّست جِياعٌ عَلَتهُم ذلّةٌ وعُراة
هُمُ القومُ أحياءٌ تقول كأنّهم على باب "شيخ المسلمين" مَواتٌ
... فهل قَضَت الأديانُ أن لا تُذيعَها على النّاس إلاّ هذه النّكرات

(الجواهري، دون تا، ج١، صص٤٦٨-٤٦٩)

وقد يكون نقده لهؤلاء المتظاهرين بالدّين ولا ديانة، بل ولاإنسانية لهم نقدا لاذعا يعدّونهم من اللّصوص واللّاطة والزّناة يقول:

وخلفَهم الأسباطُ تَترَى ومنهم لُصوصٌ، وبينَهم لاطةٌ وزُناة

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٤٦٩)

www.SID.ir

Archive of SID

ويرى نفسه بين المستضعفين يوقظهم من غفلتهم الطّويلة بكلماته والكلمات عاجزة من تبيين كلّ ما يرتكبه هؤلاء المتجاوزين بحقوقهم:

يـدي بيـد المستضعفيـنَ أريـهم مـن الظُّلـم مـا تعَيـا بـه الكلمـاتُ

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٤٦٩)

وفي النّهاية يرى نفسه قذى في عيون المتعدّين بحقوق الشّعب منهم أدعياء الدّين؛ لأنّه لا يقعد أمام هذه التّعدّيات، بل يتمرّد ويستمرّ في عصيانه وثورته ضد جرائمهم، كأنّه جمرة محترقة تتوالي بجمرات طويلة المدى لن تنطفئ.

فقـد أيـقَنت نفسِـي، وليـس بِضـائري بـأنّي في تلـك العيـون قـذاة

... ومـا هـي إلا جمـرةٌ تُنكـِرونها سـتأتيكم مِـن بعـدِها جَمـرات

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٤٦٩)

لا يكتفي الجواهري بقيامه وثورته على أدعياء الدّين فحسب، بل يحرّض الشّعب للثّورة عليهم؛ لأنّهم حجبوا حقيقة الدّين عن النّاس وشوّهوا وجهه الجميل والإلهي، واتّخذوا الدّين وسيلة لتحقيق غاياتهم ومفاسدهم.

سـتبقَى طويـلاً هـذه الأَزمـاتُ إذا لم تقصّـر عمرَهـا الصَّـدماتُ

إذا لم يـنلها مُصـلحون بواسـلٌ جَريئـونَ فيـما يـدّعونَ كفـاةٌ

ألم تـر أنّ الشّـعبَ جُـلَّ حقوقِـه هـي اليـومَ للأفـرادِ ممُتلكـاتٌ

سيبقى طويـلاً يـحملُ الشَّعبُ مُكرَهـا مَسـاوئَ مَـن قـد أبقـت الفتـراتُ

(الجواهري، دون تا، ج١، ص٤٦٩)

وأخيرا يمنع الجواهري دعاة الحقّ والقادة المصلحين بغضّ النّظر عن عنصرهم وجنسيتهم ـ عرباً وعجماً ـ من الزّيغ والضّلال والتّحريف في سبيل الدّعوة إلى الحقّ، ويعظهم بإكرام الشّعب والمحافظة على حقوقه من السّلب والنّهب، ويقول:

وصُـنتُ كـلَّ دُعـاةِ الحـقِّ عـن زيـغٍ والمُصلحين الهُداةِ، العُجم والعربا

(الجواهري، دون تا، ج٣، ص٨٩)

أمّا بعد هذا كلّه فسلطة البيت أعطت الجواهري التّمرّد والرّفض للجبر و«سلطة الدّولة أكسبته التّحدّي وسلطة الثّيوقراطية الدّينية دفعته للتّحرّر وسلطة التّقاليد وجّهته لفكرة الحداثة» (شعبان، ١٩٩٧، ص١١٤).

www.SID.ir

Archive of SID

النتيجة

رغم أنّ حياة الجواهري كانت حافلة بالحوادث الجسام ومحاطة بالسّلطات الجامعة الأطراف، ويعاني شاعرنا من هذه المرارات والمصاعب، ولكنّه لم يقعد فينظر ولم يكتف بإرائة هذه السّلطات في مرآة قصائده فحسب، بل أخذ يعارض ويتمرّد ضدّ القوى المتجاوزة، ولم ينتظر حتّى يقوم الآخرون بالثّورة والمناضلة، أو لم يكن يتوّقع الفرج والمعجزة دون الإقدام والعمل، بل وهو اجتهد بكلّ نفيس له من النّفس والمال. إنّ الجواهري لم يتعب ولم يعرف الكلل في حياته قطّ، والأمر الّذي جعله ممتازاً بين الشّعراء أنّه كان متفائلاً بالمستقبل المشرق مع انتصار الحقّ ورفع السّلطات. كما أنّ موقفه من السّلطات كلّها موقف تنويري إصلاحي تقدّمي، بذل كلّ جهوده في سبيل تنوير الشّعب العراقي بكلّ طبقاته الاجتماعية ولاسيما الشّباب، كما حاول بكلّ ما عنده في سبيل إصلاح المفاسد في شتّى المستويات، وقد خطى خطوات واسعة مؤثّرة في تقدّم الوعي الإنساني.

أمّا تمرّده على سلطة الوالد فقد نبع من نفسه الطّامحة وكرامة ذاته، ونضالُه السّياسي فهو وليد فهمه الصّحيح لواقعة الطّفّ وهدف الإمام الحسين عليه السلام السّامي من القيام ضدّ الظّلمة ورفضه للظّلم وطلب الإصلاح والتّغيير في المجتمع المستسلم والخاضع أمام الباطل، كما أنّ ثورته على المتظاهرين بالدّيانة ناشئة من فهمه العميق مناضلةَ الإمام الحسين عليه السلام ضدّ أدعياء الدّين الّذين جعلوا الدّين مطية للوصول إلى مطامعهم وآلة لاستعباد الشّعب، ورفضه للتّقاليد والعادات البالية متأثّر من الكتب اللاّتينية الّتي قرأها، كما أنّ حضوره في المحافل الثّقافية والأدبية أدّى إلى تعرفّه بالحضارة الجديدة والمعارف والمبادئ الإنسانية الحديثة.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

١. بهاء الدين، جعفر؛ ومراديان، علي أكبر (٢٠١١م). *الالتزام في شعر محمّد مهدي الجواهري*. بيروت: دار الكاتب العربيّ.

٢. الجواهريّ، خيال محمّد مهدي (٢٠٠٤م). *الجواهري... مسير قرن*. دمشق: منشورات وزارة الثّقافة.

٣. ـــــــــــــــــــ (١٩٩٩ أ). *الجواهري سيمفونيّة الرحيل*. دمشق: منشورات وزارة الثّقافة.

٤. الجواهري، محمّد مهدي (دون تا). *ديوان الجواهري*. تجميع وتحقيق إبراهيم السّامرائي؛ مهدي المخزومي؛ علي جواد الطّاهر؛ رشيد بكتاش، ج١-٧، بغداد: مطبعة الأديب.

٥. ـــــــــــــــــــ (١٩٩٩ ب). *مذكراتي*. ج١-٢، بيروت: دار المنتظر.

٦. حسن، علي ديب (٢٠٠٢م). *المرأة في حياة وشعر الجواهري*. دمشق: الأوائل للنّشر والتّوزيع.

٧. شعبان، عبدالحسين (١٩٩٧م). *الجواهري جدل الشعر والحياة*. بيروت: دار الكنوز الأدبيّة.

٨. الموسوي، عبدالصاحب (١٩٨٨م). *حركة الشّعر في النجف الأشرف وأطواره*. بيروت: دار الزهراء.

٩. اليحيى، فرحان (٢٠٠٠م). *أزمة المواطنة في شعر الجواهري*. دمشق: إتحّاد الكتاب العربي.

www.SID.ir